الموضوعات الخقوقية

التعذيب والعقاب

(للاستاذ محمد عبد الله عنان)

١ – التعذيب في التاريخ

وفي التاريخ الاوربي أمثلة رائعة لتعذيب أشخاص عظام كانت مسرح خصوبتها الاقلام الفيري واسكندر ديماس وميشيل زيفاكو ومجلس التفتيش وجمعية الرؤيات والتاريخ أسماء تقشعر صفحات التاريخ دما وتطرها اشلاء، وسنقتبس بعضها لقارئ، اتماما للصفة التاريخية والاجتماعية

(المثل الاول)

في ليلة ٢١ اغسطس سنة ١٥٤٢ قبل أندريا انجري ملك نابولي وبيت المقدس تحريض زوجته وبعض رجال البطانة الملكية، فاصدر البابا كليمنص السابع أمرا الى رئيس القضاة بجمع الادلة المثبتة لادانة القتلة. فأمر بالقبض على كل من اعتقد او اوحى اليه بأنه شريك في الجرم من سادة وسيدات، وقضى باحالتهم جميعا على التعذيب للاعتراف

وربط متهمان امتهرا عاليين أصليين كل الى ذيل حواد وجرهما الجلادون على ذلك النحو في شوارع المدينة حتى أسلما النفس الاخير واقتاد الجلادون باقي المتهمين الى ساحة واسعة فيها معدات التعذيب

وكلهم موثق الى ما وراء نعجلة صغيرة وحوله جلادان يضربانه بقضيب من الحديد فينشى الدم من جسده ، يسبغ الارض بلون الارجوان

وربطت غادتان فتيان من أميرات البلاط الى عجلتين بعد أن جردتا من الثياب. فأحاطهما الجلادون وأخذوا يقطعون من جسميهما العاريين بخناجرهما الحادة قطعا من اللحم يلقونها الى الناس فيختطفونها بحماس شديد ويشيرون للجلاد الى أفضل مكان يجب القطع منه

وكان رئيس القضاة قد أمر ان تنصب في الميدان محرقة عالية واليها أخذ المحكوم عليهم والقيت الى النيران بقايا أجسادهم الممزقة

ثم دوى المكان بصياح هائل غشي صياح أنين القتلى وانقضت الجماهير فتخاطفت من النيران بقايا المحكوم عليهم ، وأخذت تمزقها شذر مذر وكل يجتهد في اغتنام أثر يبقيه تذكارا لذلك اليوم المشهود ! »

(المثل الثاني)

وفي عهد كليمنصن الثامن قتل عظيم من عظماء رومة يدعى فرنشيسكو شنشي وهو أب جاوز وحشية الكواسر فانتهك عفاف ابنته. وانتقمت المسكينة لعفافها المغتصب بتدبير مقتل المعتدي الاثيم

وارتاع قداسة البابا عند علمه بتفاصيل تلك الجريمة أيما ارتياع فأمر أن يطاف بالمجرمين في شوارع رومة مربوطين الى ذيول الخيل لولا أن توسط لديه في طلب الرأفة وفد من الكرادلة والعظماء . وخشي قداسة البابا أن يستأثر جمال بياتريس شنشي — ذلك الذي اعتبره رفائيل

ملائكيا ـ قلب قاضيها فعهد بها الى قاض عرف بالجمود والصرامة

فلما راجع ماتم في التحقيق لاحظ ان بوليس القاضي الاول اقتصر على معاملة المتهمة بالتحقيق الاعتيادي فامر ان تعامل به وبغير الاعتيادي. وذلك النوع من التحقيق او التعذيب هو تحايل الحبل الذي شرحناه فيما سلف وهو كما قلنا من افظع الطرق الجهنمية التي استنفد الانسان دهاءه في استنباطها لتعذيب المجرمين والابرياء. والى القارىء نص تقرير التعذيب الذي املاه القاضي واثبته الكاتب مأخوذا من اوراق القضية المحفوظة بمكتبة الفاتيكان :

لما كانت المتهمة بباريس شنشي قد أصرت أثناء التحقيق على الانكار فقد نقلت بحراسة جنديين من السجن الى غرفة التعذيب حيث كان المحقق في انتظارها. وبعد ان قص شعرها أمر المحقق بطرحها فوق مقعد الاتهام ثم بتجريدها من ثيابها وايثاق يديها وراء ظهرها ثم انفاذ الحبل الموثقه به من حلقة بسقف القاعة وربطه في عجلة في اسفلها تدار بقوة رجلين واربعة عصى

وقبل البدء بالتعذيب سألها المحقق أن تعترف بالاشتراك في مقتل أبيها ولكنها بالرغم من أقوال اخوتها وزوجة ابيها وتوقيعهم على محضر الاعتراف اصرت على الانكار قائلة : عذبوني وافعلوا بي ما شئتم. لقد قلت الحقيقة ولن اقول سواها ولو قطعتموني اربا

فبدأ العذاب وامرنا برفعها قدمين ثم تركناها ريثما تلونا الصلاة

وعدنا الى سؤالها عن الحقيقة فأبت ان تعترف بشيء. ولم تجب بغير هذه العبارة : انكم تقتلونني ! انكم تقتلونني

فرفعناها اربعة أقدام وعدنا الى الصلاة. وفي اثناء تلاوتها تساقطت بالاغماء فالقينا على رأسها ماء باردا فلما افاقت صرخت وقالت اني هالكة لا محالة انكم تقتلونني. وبكت ولم نجب بشيء.

فعدنا الى رفعها والى الصلاة بينما كانت تنتفض وتقول — رباه ! ولم تشاركنا في صلاتنا.

ثم عدنا الى سؤالها عن الجريمة فأبت ان تعترف بشيء وكررت انها بريئة وعاد الاغماء اليها

فالقينا الماء الباردعلى رأسها مرة أخرى ففتحت عينيها وصاحت تبا لكم ايها الجلادون ! انكم تقتلونني انكم تقتلونني ! ولم تقل سوى ذلك .

فلما رأينا اصرارها على الانكار أمرنا الجلاد ان يبدأ رفعها وخفضها فرفعها نحو العشرة اقدام ثم استوقفناه وطلبنا منها ان تعترف غير انها اما لعجزها عن النطق او اصرارها على الصمت لم تفعل سوى ان حركت رأسها اشارة بالرفض

فاشرنا اليه ان يخفض الحبل فهبطت من ارتفاع عشرة اقدام الى قدمين. واشتد الصدمة دار جسدها في جهة معاكسة لذراعيها فصرخت صرخة منكرة واغمي عليها

« فالقيناه على وجهها ماء بارداً فأفاقت وصرخت — تباً لكم من أنذال قتلة انكم تقتلوني ولكن لو قطعتم ذراعي من جسدي ما قلت شيئاً »

(المثل الثالث)

ويذكر التاريخ الحديث للقضاء الإيطالي مثلاً آخر للتعذيب. ففي سنة ١٦٣٠ اتهم عدة اشخاص بحمل الوباء الى ميلان وبتلويث جدران منازلها بالسم فباشر القاضي الجنائي فيزي وفيروني واوضحا كيف ان نظام التعذيب يؤدي الى التحكم وسوء التصرف في اوقات الرعب العام وقدم فيروني أسطع الحجج مستندة الى اجل المبادئ على فساد التهمة التي عذب من اجلها بريشان معذب الحبل الذي ينتهي بتهشيم الراحة والاصابع ثم اعدما بواسطة العجلة. وهذه هي الدفوع التي قدمت مأخوذة من الشهادات المعروفة واقوال الشراح (١) تهمام شخص بالاشتراك لا يكفي لجعله شريكا ما لم يشهد باشتراكه اثنان او يعترف (٢) شهادة الرواية او السماع يجب ان تسمع قبل الشهادة المباشرة (٣) الاعتراف المنتزع اثناء التعذيب لا يمكن اقراره بعد (٤) لا يعتبر الاعتراف الحاصل بناء على وعد بالعفو (٥) لا قيمة للاعتراف عن جريمة مستحيلة

هذه ايها القارىء لمحة من انظمة التعذيب في القرون الوسطى والحديثة فهكذا كان القضاء والعدالة، وهكذا كانت قوانين الكنيسة العادلة الرحيمة وهكذا كانت نفسية الشعوب

التعذيب في فرنسا

بقيت لي كلمة عن التعذيب بفرنسا:

كانت اقبح التعاذيب ، المقاب بفرنسا في القرن الرابع عشر قبل مطاعنة من الخاصة القضاء الايطالي والاسباني ، وذلك لان هذه الامم تفنانوا فيها العوامل القوية او السيئة بالشدة التي عصفت بايطاليا واسبانيا والجهات التي تقع فيها محاكم التحقيق بدون هوادة ، ولم تبخل الرغبة السياسية والتشريعية كما فعلت في اسبانيا وفلورنسا

ولكن اشتدت هذه الانظمة بفرنسا وصبغة اتهم منذ القرن السادس عشر ولم تكن عندئذ تختلف اختلافا كبيرا عن امثالها في البلاد الاخرى اذ كانت مأخوذة كغيرها من القوانين الرومانية والكنيسية

وكان تقييد العقاب في القضاء الفرنسي اكثر اهتماما بالغاية التعذيب من التحقيق فكانت عقوبة الاعدام تنفذ بأشكال انها هي مثال الوحشية كأن يوثق المحكوم عليه الى عجلة ، ويوثق كل من ساقيه بذراعه جواد ، ثم يساق كلا الجوادين في اتجاه مخالف فتتم عملية الاعدام فأن يشق المحكوم عليه الى قسمين متماثلين او يحرق بنار ممزق او يضطلب المحكوم عليه ، تمدد اطرافه وتدفع رأسه بالة معذب يسمى (البالوري) يختطف الجلاد رأسه بفأسه او سيفه او يحرق المحكوم عليه حيا بطريقة (الانوراق) الاسبانية وهي التي كانت متبعة في اعدام الكفرة والسحرة والنور

وقد كان يصحب التحقيق أنواع شتى من العذاب كقطع الاطراف او حرقها او اعدام الجروح بالرصاص المذيب او ارغام المتهم على تجرع الماء القطران او الخل وهو خزه بالابر والخناجر وكان تعذيب الحبل الذي وصفناه في مقال سابق اكثر من غيره شيوعاً في الجنايات

وبتأثير القضاء الفرنسي القديم بتشديد العقوبات المقيدة للحرية والتفنن في ايقاعها فقد كان السجن في الشاتليه او الباستيل في بعض الاحيان أسوأ عقوبة الاعدام ذاتها. وقد نسهب الكلام يوماً عن الباستيل وحياة المحكوم عليهم بالسجن فيه ذلك الصرح الذي كان قبراً للعقول المفكرين من الكتاب والساسة والمصلحين والذي رج اثر ظلامه فولتير وميرابو والذي حطم الفرنسيون فيه رمز الاستعباد والظلم يوم فاتحة الثورة واتخذوا يوم سقوطه عيداً سامياً تقدس ذكراه

والعدل في الارض يبكي الحق لو سمعوا ... به ويستضحك الاموات لو نظروا
والسجن والموت لمحانين ان صمدوا ... والمجد والفخر والاثراء ان كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقر ... وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر
وقاتل الجسم مقتول بفعلته ... وقاتل الروح لا تدري به البشر

جبران خليل جبران